مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 49 (شتاء 2002)، ص 52

صعود وسقوط ما بعد الصهيونية*

نيري ليفنه

يصادف الشهر المقبل مضي عام على اندلاع الانتفاضة [الفلسطينية] الجديدة. ويدعي إيلان بابِهْ، وهو "ما بعد صهيوني (postzionist) بارز، أنه بذلك يكون قد مضى عام أيضاً على احتضار ما بعد الصهيونية كحركة ورؤية اجتماعية. أمّا البروفسورة أنيتا شابيرا، التي تعارض بشدة أفكار بابِهْ، والتي ألّفت كتاباً ضد ما بعد الصهيونية ("يهود جدد، يهود قدامى")، فإنها تقول إن ما بعد الصهيونية كنَهْج في التفكير لم تنته في الحقيقة، وإن هناك احتمالاً كبيراً أن يضم الجيل المقبل من الباحثين والمحاضرين في الجامعات عدداً لا يستهان به من الأشخاص ما بعد الصهيونيين، مع أن شعبية أفكار ما بعد الصهيونية في أوساط الطلاب والقراء انخفضت جداً منذ تشرين الأول / أكتوبر الماضي [2000].

"إذا كانوا حتى السنة الماضية حاولوا في الجامعة عرقلة تقدمي"، يقول بابِهْ، "فإنهم اليوم يحاولون فعلاً إخراجي منها." ومن المعقول الافتراض أن احداً لن يقيل بابِهْ من منصبه في جامعة حيفا، لأنه مثبَّت كأستاذ فيها، ومحاضر يتمتع بشعبية خاصة، فضلاً عن أنه منغمس في نقاش أكاديمي جارٍ مفتوح لمختلف وجهات النظر. لكن ما لا جدال فيه هو أن بابِه وما بعد الصهيونيين الآخرين ينجحون في إثارة غضب خصومهم الأيديولوجيين، في الوسط الأكاديمي وخارجه، ويتسببون بإثارة العداء لا للرأي الآخر فقط، بل لأصحابه أيضاً.

فالبروفسور يوآف غيلبر، مثلاً، وهو زميل لبابِهْ في جامعة حيفا، يقول: لست مستعداً لأن يُذكر اسمي في الصحيفة نفسها التي يُذكر فيها اسم بابِهْ. كل شخص يحترم نفسه لا يوافق على أن يظهر في المكان نفسه، أو أن يجلس في الغرفة نفسها التي يجلس فيها بابِهْ، وأنا بالتأكيد شخص يحترم نفسه." بل إنه وزع، الشهر الماضي، في شبكة الاتصالات الداخلية للجامعة رسالة إلكترونية شبّه فيها بابِه باللورد هاو هاو، وهو اللقب الذي أُطلق على وليام جويس، الفاشي البريطاني من أصل إيرلندي، والذي كان مذيعاً في خدمة النازيين في راديو برلين خلال الحرب العالمية الثانية.

---

* **المصدر:** "هآرتس"، الملحق الأسبوعي، 2001/9/21.

لست ما بعد صهيوني، ولكن

إن شعبية ما بعد الصهيونية بالنسبة إلى المهتمين بإسرائيل هي في ذروة ازدهارها كموضوع للدرس في الخارج، قال د. توم سيغف، الصحافي والمؤرخ، قبل ساعات معدودة من سفره إلى الولايات المتحدة للإشراف على حلقة دراسية في جامعة رَتغِرْس عن هذا الموضوع بالذات، ستستمر ثلاثة أشهر. كما أن كتابه الموجز، "الصهيونيون الجدد"، الذي صدر عن دار "كيتر" للنشر قبل بضعة أشهر، سيُنشر في الولايات المتحدة في السنة المقبلة، وبعد ذلك في دول أُخرى. "هذا موضوع يجذب إليه كل من هو مهتم بإسرائيل في الخارج"، يقول سيغف، "فهناك نقاشات متواصلة بصدده، وعدد لا حصر له من المقالات، ثمة اهتمام كبير جداً في العالم بظاهرة ما بعد الصهيونية، وهم يرونها كحدث مركزي في دولة إسرائيل، ومن الأسهل عليهم كثيراً، في إطلالتهم علينا من الخارج، أن يلاحظوا ما يجري لنا."

ونظراً إلى انخفاض شعبية ما بعد الصهيونية كموقف سياسي عما كانت عليه قبل عام، فإن الذين كانوا يؤيدون آراء ما بعد الصهيونية في الماضي ويغضون النظر عن نَسْبهم إلى المعسكر المُشهَّر به من دون أن يعتبروا أنفسهم جزءاً منه، باتوا اليوم يتنصلون منه علناً. وهنا المكان المناسب لإيضاح أن الصهيونيين الأقحاح يستخدمون أحياناً مصطلح "ما بعد صهيوني"، كونه أكثر تحضراً من مصطلح "كارهو إسرائيل"، لذمِّ الأشخاص الذين يبدون في نظرهم كمن يشكك في أن الصهيونية كانت على حق.

إذا كان المقصود بمصطلح ما بعد الصهيونية محاولة تفحص المظالم التي تسببت بها الصهيونية، وإعادة النظر في تاريخ إسرائيل من زاوية مختلفة عن المتعارف عليه، فإن كل من يوصف في هذه المقالة بأنه "ما بعد صهيوني" سيوافق بالتأكيد على إدراج اسمه في القائمة. لكن بالمعنى الضيق والأكثر دقة، فإن ما بعد الصهيونية هي مدرسة فكرية تعترف بشرعية الصهيونية كحركة قومية لليهود، لكنها تشير إلى أنه في وقت ما – يمكن اعتباره حداً فاصلاً بين زمَنيْن – استنفذت الصهيونية مهمتها التاريخية، أو أنها فقدت شرعيتها بسبب المظالم التي ألحقتها بالآخرين (لا بالعرب فقط، بل أيضاً، على سبيل المثال، باليهود الشرقيين، واليهود المتدينين/ الحريديم، والنساء).

وينجم عن هذه النظرة نتيجة سياسية فحواها أن على إسرائيل أن تتخلص من مكوناتها الصهيونية، التي يقوم طابعها اليهودي على أساس منها، لأن بقاءها يعوق تحولها إلى دولة ديمقراطية. وهذه النتيجة، في نظر معارضي ما بعد الصهيونيين، تدخل الأخيرين في المعسكر المعادي للصهيونية.

"ما بعد الصهيونية"، يقول د. أمنون راز – كركوتسكين من جامعة بن – غوريون، "هي في حقيقة الأمر نعت عام ابتُدع من أجل أن يوضع في سلة واحدة، لغرض التشهير به، كل من لا يتماثل تماماً مع مؤسسات الحكم، أو لديه تفكير انتقادي تجاه الطريقة التي يدرَّس التاريخ بموجبها، أو من يرى الأضرار الكبيرة التي ألحقتها الصهيونية بالفلسطينيين أو بـ[اليهود] الشرقيين."

"ما بعد الصهيونية برميل فارغ"، يقول البروفسور يهودا شِنهاف من جامعة تل أبيب، "أعتقد أنه لا يجوز الاستمرار في استخدام مقولة 'ما بعد الصهيونية' لأن الناس يستخدمونها بصورة تثير البلبلة. فليس كل من يدعو إلى إنهاء الاحتلال هو بالضرورة ما بعد صهيوني. ويستطيع من يريد العودة إلى حدود 1967 أن يكون صهيونياً قحاً إذا كان يعتقد أن القومية لا تستطيع البقاء بلا حدود. من ناحية أُخرى، يمكنك القول إن المستوطنين هم ما بعد صهيونيين، لأن وجودهم بالذات حيث هم يلحق الضرر بوجود القومية ضمن حدود واضحة."

إن راز – كركوتسكين وشِنهاف لا يعتبران أنفسهما ما بعد صهيونيين. بل يعود راز – كركوتسكين فيشدد: "ما بعد الصهيونية مصطلح أمقته. أنا لست ما بعد صهيوني بأي شكل من الأشكال. "لكنهما كليهما يُعتبران جزءاً من المعسكر ما بعد الصهيوني، وليس من جانب معارضيهما فقط. وقد ثار نقاش صاخب قبل عدة أشهر في حركة "القوس الديمقراطي الشرقي" (هكيشِت هديموكراتيت هَمِزراحيت) بهذا الخصوص. فموشيه كريف، مثلاً، هو واحد من أشد المعارضين في الحركة للأعضاء الذين ينطبق عليهم تعريف ما بعد صهيوني، مثل شِنهاف. وهذا النقاش مثير للاهتمام في الأساس لأن حركة "القوس أُنشئت على أساس موقف ما بعد صهيوني يرى أن الأيديولوجيا والحركة الصهيونيتين، وهما أشكنازيتان في جوهرهما، ألحقتا ظلماً كبيراً بالعرب واليهود الشرقيين.

يقول كريف إن "القوس" نشأت أساساً لرفع الظلم الذي لحق بالشرقيين. وهي تحاول أن تفعل ذلك. بحسب قوله، من خلال "إجراء نقاش عميق مع المجتمع الإسرائيلي ومحاولة كتابة تاريخ المجتمع في إسرائيل من وجهة نظر الشرقيين، وليس كما كان الأمر في الماضي، من وجهة نظر الأشكنازيين فقط. لكن نحن، بحسب رأيي، لسنا ما بعد صهيونيين، لأننا لا نريد تفكيك الدولة."

ويعرّف كريف وآخرون معارضون لما بعد الصهيونية الظاهرة بحسب قراءتهم لاستنتاجاتها. فكثيرون ممن هم ما بعد صهيونيين يعتقدون أن على إسرائيل أن تتخلى عن الصهيونية وأن تصبح "دولة جميع مواطنيها"، أي دولة يتمتع فيها الجميع، بمن فيهم العرب، بالمساواة التامة. لكن ما بعد الصهيونية ليست بالضرورة رؤية سياسية، وإنما هي في الأساس

طريقة في النظر إلى الأمور من زاوية مختلفة. والنتائج المستخلصة من طريقة النظر هذه يمكن أن تكون متباينة. فبِني موريس، على سبيل المثال، وهو من أبرز "المؤرخين الجدد، صهيوني. أمّا إيلان بابِه، فهو معاد للصهيونية، لكنهما كليهما يصنفان من قبل معارضيهما بأنهما ما بعد صهيونيين.

حالة ظرفية، لا أيديولوجيا

ادعى توم سيغف، في مقال كتبه لصحيفة "نيويورك تايمز" قبل نحو ثلاثة أسابيع، أن الفلسطينيين هم الذين يرغمون الإسرائيليين ما بعد الصهيونيين، من أصحاب النيات الحسنة، على العودة إلى رحم الصهيونية. "ما بعد الصهيونية حالة ظرفية، لا أيديولوجيا"، يقول سيغف، "هي حالة يعاف فيها أشخاص الأيديولوجيا والجماعة، ويرغبون في أن يعيشوا حياتهم كأفراد."

ألّف سيغف كتابه "الصهيونيون الجدد" قبل اندلاع الانتفاضة. وهو يقول: "رغبت في تأجيل نشر الكتاب لأنني لا أدري في أية حالة نحن الآن"، "لست متأكداً من أن حالة ما بعد الصهيونية انتهت. فما بعد الصهيونية تعبّر عن تطورات عميقة جداً في المجتمع، وهي أكبر من نزوة تتملّك بضعة أشخاص يؤلفون كتباً. والحقيقة هي أن المجتمع سمح ليتسحاق رابين بمصافحة عرفات، ولإيهود براك بإجراء محادثات لتحقيق السلام، لأن الناس توصلوا إلى الاستنتاج أن الحياة أكثر أهمية بالنسبة إليهم. لكن بعد ذلك عاقبوا براك على فشله.

"طبعاً، عندما يعلو أزيز الرصاص ويُقتل الناس بانفجارات تكون هناك عودة إلى الصهيونية، لكن من المحتمل أن يسلّم هؤلاء بوضع يكون فيه إرهاب ولا يحول ذلك دون ضرورة السعي للسلام. يجب أن نتذكر من أي شيء وُلدت ما بعد الصهيونية: إنها وُلدت من الانتفاضة السابقة، التي انتصرت إلى حد كبير. لقد قالت ما بعد الصهيونية: تعالوا نتنازل عن المناطق [المحتلة] لأننا ببساطة عفنا الموت، والخدمة الاحتياطية، وما إلى ذلك. من يقول إن الانتفاضة الثانية لن تؤدي إلى نتيجة كهذه؟"

"الحقيقة هي"، كما يلاحظ راز – كركوتسكين، "أن المقالات الأكاديمية الانتقادية الوحيدة التي نشرت في البلد، منذ تشرين الأول/ أكتوبر، كانت في معظمها باللغة الإنكليزية." وهو يقصد بذلك مجلة "هاجر"، التي هي مجلة ما بعد صهيونية يرئس تحريرها البروفسور أورن يفتاحيل وتصدرها جامعة بن – غوريون. لكن مقالات كهذه تنشر باستمرار في مجلة "تيئوريا وبيكورِتْ" (التي يرئس تحريرها يهودا شنهاف)، وهي مجلة عبرية يُنظر إليها على أنها الناطقة بلسان ما بعد الصهيونيين، بل حتى أنها أُنشئت على يد عادي أوفير لتكون كذلك. كما أن دار "كيتر" للنشر بدأت إصدار سلسلة جديدة من الكتب تحت عنوان "الإسرائيليون" (يحررها جدعون سامث)، واثنان من

الكتب في هذه السلسلة هنا ما بعد صهيونيين واضحين: "الإسرائيليون الجدد" بقلم توم سيغف، و"نهاية حكم الأحوساليم" البروفسور باروخ كيمرلنغ (أحوساليم: الأحرف الأولى بالعبرية لِـ أشكنازيم/ الأشكنازيين؛ حيلونيم/ العلمانيين؛ فتيكيم/ القدامى؛ سوسيالستيم/ الاشتراكيين؛ ليبراليم/ الليبراليين).

في كليات الفنون الجميلة في الجامعات (المسرح، والسينما) يوجد ما بعد صهيونيين كثيرون، بينهم أشخاص وراءهم ماض طويل من الاحتجاجات والنقد، أطول كثيراً من الحياة القصيرة لما بعد الصهيونية، لكن صوتهم لم يسمع تقريباً في السنة الفائتة. وأيضاً في الأدب، وفي الغناء، وفي المسرح، لم تكسب ما بعد الصهيونية في هذه السنة أرضاً جديدة. إنها لم تكن قط شأناً جوهرياً في الإبداع في البلد، يقول الكاتب والشاعر يتسحاق لاؤور، الذي يُعتبر جزء كبير من نتاجه ما بعد صهيوني، لكنه على أية حال يُصنَّف معادياً للصهيونية. "ما بعد الصهيونية بمثابة كيس مريح يمكن إلقاء الجميع فيه" – يقول لاؤور – "وهي، من ناحية، تتيح للمعادين للصهيونية الخروج من العزلة من دون أن يسمّوا أنفسهم معادين للصهيونيين، ومن ناحية أُخرى تتيح لجميع الأيديولوجيين الصهيونيين، أو التابعين للمؤسسة الصهيونية، إدخال الجميع في الكيس كي يستطيعوا ركله."

ليس صعباً فقط العثور على ما بعد الصهيونية في الأدب، يقول لاؤور، بل من الصعب أيضاً العثور على مواقف سياسية مغايرة. "قبل فترة قيل لي إن من الضروري تنظيم أمسية لشعراء سياسيين، بمناسبة الوضع الحالي، لكن من المناسب ألاّ تقتصر على مئير فيزليتر وأهرون بتاي ويتسحاق لاؤور. قلت: دلّوني على قصيدة سياسية واحدة لشاعر شاب. وكذلك هو الأمر فيما يتعلق بالأدباء الشبان. بين الأكبر سناً يمكن القول إن يهوشواع كنز هو ما بعد صهيوني، من حيث كونه كنعانياً بارزاً، وشورلي كستل بلوم هي ما بعد صهيونية لأن السخرية في أدبها تضع كل الحقائق المقدسة دائماً في موضع الشك."

المجال الذي سيبقى دائماً ما بعد صهيوني، من دون أي ارتباط بالتقلبات في الوضع الأمني، هو الحركة النسائية (feminism). فالحركة النسائية هي، في الجوهر، إعادة النظر في التاريخ والأيديولوجيا من زاوية رؤية النساء الشاملة. "في الحركة النسائية يجري الحديث في العقد الأخير عن الألم الشديد الذي تسببت به الصهيونة"، تقول حنا سفران، المدرّسة في وحدة الدراسات النسائية في جامعة حيفا، والناشطة في الحركة النسائية "المرأة للمرأة". إن كل النقاش الذي جرى في السنوات الأخيرة هو نقاش بشأن الهوية، وبالتالي فهو مرتبط بنتائج الصهيونية، ومن هنا

فإن جوهره ما بعد صهيوني. والحركة النسائية هي حركة تناضل من أجل المساواة، ومن هنا ما يجري الحديث عنه هو المساواة بين الأشكنازيات والشرقيات، وبين اليهوديات والفلسطينيات.

ومن النساء ما بعد الصهيونيات البارزات في الوسط الأكاديمي: البروفسورة تانيا راينهارت (علم فقه اللغة)؛ د. أورلي لوبين (الأدب)؛ د. راحيل غيورا (الفلسلفة)؛ د. عنات بيلتسكي (الفلسفة)؛ البروفسورة غاليت حزان روكم (الأدب العبري).

تاريخ مجزأ، تاريخ جديد

"الشائعات عن موت ما بعد الصهيونية سابقة لأوانها، ومبالغ فيها كثيراً"، يقول البروفسور زند من قسم التاريخ العام في جامعة تل أبيب. وهو يعرّف نفسه بأنه غير صهيوني، "لا أعتقد أن أحداً في الوسط الأكاديمي ممن عرّف نفسه بأنه ما بعد صهيوني، أو غير صهيوني، أو معاد للصهيونية، عاد بعد تشرين الأول/ أكتوبر الأخير فأصبح صهيونياً، لكني أعتقد أن تساهل وسائط الإعلام تجاه ما بعد الصهيونيين انخفض عما كان عليه قبل الشهر المذكور. لقد فتحت الانتفاضة الأولى الطريق للباحثين الانتقاديين، الذين تسمينهم ما بعد صهيونيين، وأضفى اتفاق أوسلو شرعية معينة على ما بعد الصهيونية. لكن تشرين الأول/ أكتوبر الماضي ضرب حصاراً على النخب الإعلامية، ودفعها إلى العودة إلى مبائيتها [نسبة إلى حزب مباي] القديمة.

"وخلافاً لزميلي إيلان بابِهْ، لا أعتقد أن هناك تراجعاً في الجامعات عن ما بعد الصهيونية، أو عن البحث الانتقادي. وأعتقد أن إيلان، ببساطة، كان واهماً عندما اعتقد أن التغير في الجامعات والتسامح الليبرالي فيها هما عملية يمكن أن تتم بسرعة. وأنا لا أعتقد أن عدد الباحثين الانتقاديين، أو ما بعد الصهيونيين، هو اليوم أقل مما كان عليه قبل عام. كما أنني أعتقد أنه يوجد جيل استمرار، ربما ليس كثير العدد، لكنه موجود. ولديّ، شخصياً، على سبيل المثال، خمسة طلاب يحضّرون لشهادة الدكتوراه أفترض أن أكثرهم سيعرّف نفسه بأنه غير صهيوني."

عملياً، كانت بداية ما بعد الصهيونية الأكاديمية عند المؤرخين، وبدقة أكثر "المؤرخين الجدد". وهناك خلاف في الرأي بخصوص متى بدأت تماماً ما بعد الصهيونية، لكن الجميع متفقون على أن هذا حدث في النصف الثاني من الثمانينات. وقتئذ حدث أمران: الأول هو الانتفاضة الأولى، التي ذكّرت الجميع بأن هناك أيضاً جانباً آخر، جانب المتضررين، في قصة نجاح الصهيونية؛ الأمر الثاني أن أبحاثاً ذات طابع ما بعد صهيوني أخذت طريقها إلى النشر، فبموجب قانون المحفوظات، فتحت في نهاية السبعينات الملفات التي تشتمل على شهادات ووثائق رسمية تتصل بحرب 1948، وكانت عشرة أعوام فترة معقولة بالتأكيد لكتابة بحث أكاديمي ونشره.

المؤلفات ما بعد الصهيونية الأولى نُشرت بالغلة الإنكليزية، وخارج البلد: كتاب سمحا فلابان "ولادة إسرائيل" نُشر في نيويورك سنة 1987. وبعد مرور نحو عام نُشر كتاب بِني موريس "ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين" (كامبردج)، وكتاب آفي شلايم "تواطؤ عبر [نهر] الأردن" (أكسفورد)، وكتاب إيلان بابِه "بريطانيا والصراع العربي – الإسرائيلي" (لندن).

البداية كانت، إذاً، عند المؤرخين الجدد"، الذين هم أيضاً لم يكونوا مجموعة (فقط بِني موريس، الذي هو بصورة عامة صهيوني، أخذنا، وكنا ثلاثة، وأعلن أننا "مجموعة"، يقول بابِهْ). أمّا في الطرف الآخر من المتراس، فقد استشعر شبتاي طيفت في وقت مبكر الخطر الكامن الذي يهدد الروحية القومية ونشر في "هآرتس"، سنة 1989، سلسلة من ثلاثة مقالات عن "المؤرخين الجدد" اتهمهم فيها بالافتقار إلى الاستقامة الفكرية، وبالاستناد عن وعي إلى معلومات مغلوط فيها. وبدأت الحرب. وفي وقت لاحق، عندما بدأت مواقف انتقادية تُعلن وتُكتب في مجالات أكاديمية أُخرى، بات مطلوباً إيجاد مصطلح آخر أكثر شمولاً يحيط بالجميع.

عندما شرع المعنيون في استخدام المصطلحين في الوقت نفسه كان الميل، في البداية، إلى اعتبار المؤرخين الجدد ما بعد صهيونيين. وهكذا اعتبر بِني موريس ما بعد صهيوني، مع أنه في مواقفه السياسية صهيوني بالتأكيد. لكن إذا ذهبنا إلى ما هو أبعد من الحقائق التي كشفوا عنها في دراساتهم، فإن المؤرخين ما بعد الصهيونيين شجبوا التقسيم التقليدي المتبع في تدريس التاريخ في الجامعات الإسرائيلية، القاضي بتجزئته إلى قسمين: كل ما حدث لليهود يدرس في القسمين المخصصين لدراسة أرض إسرائيل وتاريخ شعب إسرائيل، وكل ما يتبقى من التاريخ يدرس، تقريباً من دون ارتباط باليهود، في أقسام التاريخ العام (في جامعة بن – غوريون فقط لا يوجد مثل هذا الفصل).

"هذا وضع لا مثيل له ولا شبيه له في أي مكان في العالم"، يقول البروفسور زند، "في فرنسا لا يدرسون تاريخ فرنسا وتاريخ أوروبا، كلاً على حدة. يمكن أن يكون هناك في الأقسام التي تدرس التاريخ مساقات تشدد على هذا الجانب أو ذاك. لكن هنا، إذا كنت أدرّس في قسم التاريخ العام، فمن غير المفروض أن أتطرق إلى التاريخ اليهودي. لذلك، لا شأن لما بعد الصهيونية في البحث أو التدريس في الأقسام التي تدرّس التاريخ العام، مع أنه، وبغض النظر عن ذلك، كان هناك دائماً في الأقسام التي تدرّس التاريخ العام مؤرخون صنفوا أنفسهم ما بعد صهيونيين، أو صهيونيين، أو معادين للصهيونية."

في مقابل ذلك، لا يوجد حضور لما بعد الصهيونية في الأقسام التي من الضروري جداً أن تكون حاضرة فيها. "في الأقسام التي تدرّس الفكر الإسرائيلي، أو تاريخ شعب إسرائيل، لا أعرف أحداً غير صهيوني أو ما بعد صهيوني"، يقول زند، "لماذا؟ لأن المقصود من وراء هذا التقسيم

للتاريخ هو أن على من يُدرّس تاريخ فرنسا أن يقوم بذلك بصورة محايدة وموضوعية، بينما على من يدرِّس التاريخ اليهودي أن يكون ملتزماً الأيديولوجيا الصهيونية. إن عملية إشاعة النهج الليبرالي في الجامعات، التي تقلق البروفسور أمنون روبنشتاين كثيراً، لم تصل قط إلى الأقسام العاملة على حفظ الذاكرة القومية، أي الأقسام التي تدرِّس التاريخ اليهودي، أو تاريخ شعب إسرائيل، أو أرض إسرائيل، أو الفكر الإسرائيلي. لذلك فإن المؤرخ الإسرائيلي لتاريخ شعب إسرائيل الذي أحترمه ليس مؤرخاً أكاديمياً، ولا عجب في أنه لا يشغل أي منصب أكاديمي، وأعني به بوعَز عِفْرون، الذي ألّف الكتاب ما بعد الصهيوني القيّم "الحساب القومي".

يقول البروفسور يسرائيل يوفال، من قسم تاريخ شعب إسرائيل [في الجامعة العبرية] في القدس: "أنا شخصياً لست ما بعد صهيوني، لكني أنكر شرعية الادعاء أنه لا يجوز للباحث في تاريخ شعب إسرائيل أن يكون غير صهيوني. وإذا كان التفكير ما بعد الصهيوني نمطاً ممكناً، فهو ممكن إذاً في إسطبلات الخيول، أو قصور الألماس، أو حتى في أقسام التاريخ اليهودي. ومن يعتقد أن ذلك غير ممكن معناه أنه يعتقد أن تاريخ شعب إسرائيل بدأ بالصهيونية. لكن ما العمل إذا كان بدأ قبل ذلك بأعوام؟ يمكن أن يكون هناك في قسم تدريس تاريخ شعب إسرائيل موقف مؤيد للصهيونية، وموقف صهيوني، وموقف ما بعد صهيوني. الأنماط الفكرية شرعية في كل سياق."

س: هل تعرف باحثين في أقسام تدريس تاريخ شعب إسرائيل طابع أبحاثهم ما بعد صهيوني؟

ج: "كلا، لكن السبب هو أنهم في أقسام تدريس تاريخ شعب إسرائيل لا يكادون يتطرقون إلى الصهيونية؛ فالصهيونية تدرّس في الأساس في معهد اليهودية المعاصرة."

نقد الهيمنة القومية

في سنة 1990 صدرت دورية "تيئوريا وبيكورت"، وكان بين مؤسسيها: البروفسور عادي أوفير (فلسفة)؛ البروفسور حنان حيفر (أدب عبري)؛ د. أمنون راز – كركوتسكين (تاريخ عام)؛ البروفسور يهودا شِنهاف (علم اجتماع)؛ د. عزمي بشارة (علوم سياسية)؛ المحامي أفيغدور فِلْدمان؛ د. يوآف بيلد (علوم سياسية). وقد تولى أوفير تحريرها إلى ما قبل عام. ومنذ تفرغه للبحث في إجازة عام دراسي، بعد العدد 15، يقوم بتحريرها شنهاف. "كانت الفكرة تشجيع ظهور نقد محلي للهيمنة القومية"، يقول شنهاف، "تشجيع ظهور تفكير ما بعد قومي، ما بعد صهيوني، ماركسي ومؤيد للحركة النسائية."

وفي أوساط التسعينات كان في الجامعات (أساساً في جامعات تل أبيب وبئر السبع وحيفا) عدد لا يستهان به من الباحثين ما بعد الصهيونيين، وإن كان عددهم قليلاً جداً قياساً بالصهيونيين. "في مقابل كل باحث ما بعد صهيوني هناك عشرة أو مئة باحث لا ينتمون إلى هذه الفئة"، يقول د. يوسي يونا من قسم التربية في جامعة بن – غوريون.

في بئر السبع تصدر الدورية "هاجر" التي يحررها أورِن يفتاحيل، رئيس قسم الجغرافيا في جامعة بن – غوريون. أمّا الناشر، فهو ليف غرينبيرغ، من قسم علم الاجتماع. "أنا شخصياً صهيوني بحسب التعريف [للصهيونية] لأنني هاجرت إلى إسرائيل، غير أن هذا لا يعني أنه ليس لديّ تفكير انتقادي تجاه الصهيونية، وتجاه القومية، وتجاه مؤسسة الحكم والجامعات والمجتمع في إسرائيل. لكن في واقع الأمر، يقول غرينبيرغ، "قليلون جداً هم الأشخاص المستعدون لأن يعتبروا أنفسهم ما بعد صهيونيين، باستثناء إيلان بابِهْ ود. أوري رام من [جامعة] بن – غوريون، اللذين عرّفا أنفسهما كذلك، وأملا على الفور بأن يعتبر الجميع أنفسهم كذلك، وأوجدا حركة."

"هاجر"، بحسب غرينبيرغ، دورية انتقادية تعنى بمسائل مشتركة بين مجالات بحث متعددة، لا في الإطار الإسرائيلي فحسب، بل في أي مكان في العالم أيضاً. لكننا اخترنا اسم (هاجر) كرمز مشترك بين اليهودية والإسلام، ورمز لمشكلة اللجوء والهامشية وقضايا المرأة؛ وهي المسائل التي نوجه إليها اهتمامنا."

س: لماذا تصدر "هاجر" بالإنكليزية؟

ج: "لأن اليهود فقط يعرفون العبرية، بينما الإنكليزية هي اللغة الشائعة في العالم الأكاديمي، وهناك أيضاً رغبة في التواصل مع الفلسطينيين."

الجهة التي تموّل إصدار "هاجر" هي معهد همفري الذي يديره غرينبيرغ، ويلتف حوله الباحثون ذوو الشأن من أصحاب التفكير الانتقادي والمعادي للمؤسسة في جامعة بن – غوريون. ويبلغ عددهم نحو أربعين، ويدرّسون في أقسام متنوعة: علم الاجتماع؛ العلاقات الدولية؛ الاستشراق؛ الأدب؛ الجغرافيا. وتعتبر جامعة بن – غوريون قلعة ما بعد الصهيونيين، مع أنه لا يوجد أي باحث، باستثناء أوري رام (الذي يمضي إجازة عام دراسي في الخارج)، مستعد لأن يعرّف نفسه بأنه ما بعد صهيوني.

"من الواضح أن من الممكن الترقي في الجامعات، حتى لو كان لدى المرء وجهات نظر ما بعد الصهيونية"، يقول غرينبيرغ، "هذا الأمر ممكن جداً حدوثه في تل أبيب وبئر السبع، وهو ممكن أحياناً في أماكن أُخرى. بصورة عامة، لا يوجد في أقسام علم الاجتماع تقريباً أشخاص لا يحملون فكراً انتقادياً تجاه الصهيونية، ربما باستثناء جامعة بار – إيلان، بينما عدد المؤرخين

الجدد قليل جداً. أمّا في [جامعة] بن – غوريون فالانتقاديون يشكلون أغلبية في قسم علم الاجتماع."

يقول غرينبيرغ إن المناخ في جامعة بن – غوريون مناخ تفكير انتقادي عامة، "وإذا شئت، يمكن القول إن مناخ ما بعد صهيوني بالمعنى الواسع للمصطلح." وهو يعزو ذلك إلى كون الجامعة حديثة نسبياً. "لا توجد فيها نواة مؤسساتية مسيطرة، ولذا فإن جميع المقاربات فيها مقاربات انتقادية. أمّا في [جامعة] تل أبيب، فالوضع أكثر تعقيداً لأنه يوجد هناك نواة مؤسساتية قديمة، وبالنسبة [إلى الجامعة العبرية] في القدس، فالمؤسسة القديمة قوية ومسيطرة. ومن الممكن أن يواجه المرء في القدس، إذا كان يحمل وجهات نظر ما بعد صهيونية، مشكلات تعوق ترقيته. وهنا أيضاً نشأ اضطراب معين عندما خشينا ألاّ تتم ترقية الأشخاص الذين يحملون وجهات نظر ما بعد صهيونية، لكن يسرني أن أُعلمكِ أن الأشخاص الأخيرين الثلاثة الذين حصلوا على ترقية هنا هم اشخاص يُعتبرون ما بعد صهيونيين: أوري رام؛ حاغي رام؛ يوسي يونا."

يعتقد يونا أن أبواب الوسط الأكاديمي، بما في ذلك جامعة بن – غوريون، لم تفتح بعد تماماً أمام الباحثين الانتقاديين: "الحقيقة هي أن سيدة مثل د. إيلاّ شوحَط لم تجد لها مكاناً في الوسط الأكاديمي [الإسرائيلي]، وأن د. شلومو سْفيرسْكي، الذي هو عالم اجتماع مرموق، لم يجد عملاً في إحدى الجامعات. وربما كان ذنب سفيرسكي أنه أول من فتح ثغرة للنظر من خلالها إلى العلوم الاجتماعية بصورة انتقادية. لقد تم حقّاً تثبيتي في منصبي، لكن أجد لزاماً عليّ أن أقول إنه يوجد مناخ مكارثي يمثله أشخاص كأمنون روبنشتاين، الذي يقود حملة شعواء ضد باحثين ممتازين لا غبار على استقامتهم الفكرية. وبصورة عامة، المناخ السائد في البلد هو أن الانتقادي يكره إسرائيل."

لقد اصطدم روبنشتاين مع ما بعد الصهيونية في سنة 1995، عندما كانت في ذروة ازدهارها، وكان هو وزيراً للتعليم والتربية والرياضة. ادعى وقتها، في مقال نشره في "هآرتس"، أن الأشخاص الذين اعتبرهم ما بعد صهيونيين هم معادون متطرفون لإسرائيل، منكرون للهولوكوست يشتمون ويلعنون الصهيونية، وهدفهم دفنها. وبعد عامين تقريباً، كتب روبنشتاين مقالاً آخر ضد ما بعد الصهيونية، ادعى فيه أن هدفها ليس رفع مظالم وإنما الهدف هو "هجوم جبهوي على صميم جوهر الوطن القومي للشعب اليهودي وحق هذا الوطن في الوجود... ولقد تحول الهجوم ما بعد الصهيوني إلى دعاية معادية للصهيونية، تعكس نظرة شاملة أيديولوجية، وهي لا تمثل بحثاً أكاديمياً انتقادياً."

أعاد روبنشتاين نقل المقالين في كتاب صدر هذه السنة ("من هيرتسل حتى رابين") وأثار من جديد النقاش القديم. يقول روبنشتاين اليوم: "عندما يجادل المرء ما بعد الصهيونيين، الذين

يبدون ظاهرياً أشخاصاً متنوّرين جداً، فإنهم يعتبرون ذلك مماحكة شخصية. لكن معارضتي لهم ليست شخصية، وإنما أستخدم حججاً عقلانية لأبرهن لهم أنهم مخطئون في فهمهم ومقارناتهم التاريخية، وأنهم يهاجمون قيام دولة إسرائيل بالذات."

وقد اصطف إلى جانب روبنشتاين مؤخراً نسيم كالدرون، الذي نشر في "معاريف" مراجعة متعاطفة مع الكتاب، وصف فيها مؤلفه بأنه شخص موضوعي، ووصف ما بعد الصهيونيين بأنهم زمرة غوغائية. ورد عليه يفتاحيل: إن محاولة كالدرون وروبنشتاين أن يضعا أنفسهما في خانة 'المتنورين' من خلال مقارنات سطحية وتشويه سمعة الباحثين الانتقاديين ما هي إلاّ تهرب من النقاش الجدي بشأن المشكلات العميقة للصهيونية."

وعلى الرغم من أن يفتاحيل، محرر "هاجر"، وصل إلى منصب رئيس قسم في [جامعة] بئر السبع، فإنه يدعي أن الأشخاص الذين لديهم مواقف انتقادية مهما تكن ("ما بعد صهيونية" لغرض المقال) يترقون أبطأ من غيرهم في الجامعات. "الحقيقة أن لا باروخ كيمرلنغ في القدس، ولا يهودا شِنْهاف في تل أبيب، ولا أنا أيضاً، بروفسور كامل، مع أنه يوجد في جامعة بئر السبع انفتاح أكبر مما في الجامعات الأُخرى"، يقول يفتاحيل، "لقد حصلت على شهادة الدكتوراه عن تهويد الجليل من التخنيون، وكما تلاحظين، لم أبق هناك. لحسن حظي أتوا من جامعة بن – غوريون وقالوا لي: تعالَ إلينا."

ويقول يفتاحيل إنه في الأقسام الأُخرى لتدريس الجغرافيا "لن تجِدي تقريباً تفكيراً انتقادياً، لأن الجغرافيا مرتبطة بصورة عامة بمؤسسة الحكم – فأقسام الجغرافيا تقدم المشورة لوزارة الداخلية ووزارة البيئة وللبلديات، ولذلك كثيراً ما يرفع الجغرافيون عقيرتهم بالصراخ رداً على ما أقوله وأكتبه. لا يوجد مجال أكثر تشبعاً بالقومية من الجغرافيا."

في جامعة بئر السبع، يقول يفتاحيل، توجد مجموعة كبيرة من الباحثين الانتقاديين، وأيضاً جيل استمرار كثير العدد. والأقسام الأكثر تشبعاً بما بعد الصهيونية هي أقسام علم الاجتماع، والتربية، والاستشراق، وعلم النفس، والجغرافيا، والتاريخ، والأدب، وحتى الاقتصاد. "أهلّنا مجموعة كبيرة من الأشخاص، ولدينا عدد كثير من الطلاب الذين يحضّرون للدكتوراه وما بعد الدكتوراه."

س: إذاً، أنت لا تتفق مع ادعاء بابِه أن ما بعد الصهيونية انتهت؟

ج: "إيلان، صديقي العزيز، وأوري رام، أعلنا أن ما بعد الصهيونية لا شيء لا مضمون له، والآن يعلنان موت هذا الشيء المفتقر إلى المضمون. إن الباحثين الانتقاديين لم يختفوا، وإنما

العكس. غير أن إيلان محق في أنه عندما يكون هناك إطلاق نار يهدأ النقاش العام. لكنه يعود فيتجدد عندما يهدأ إطلاق النار، لأن لا بديل منه."

أيضاً د. غوتفاين، من جامعة حيفا، يعتقد أن مستقبل ما بعد الصهيونية مضمون، على الأقل في المدى القريب، لكن لأسباب مختلفة كلياً. "ما بعد الصهيونية"، يقول "هي في الحقيقة الوجه الأيديولوجي للخصخصة التي تمر بها الدولة – إنهم في واقع الأمر يقومون بخصخصة الصهيونية. لذلك أعتقد أن الخطر على ما بعد الصهيونية يمكن أن يأتي فقط من حركة يسارية حقيقية واشتراكية" – حركة لا تلوح الآن، كما هو معلوم، في الأفق.

جيل الاستمرار ينطلق

"المهم ليس كم عدد ما بعد الصهيونيين الموجودين في كل جامعة، وإنما تأثيرهم"، يقول البروفسور يوسي غرودجِنْسكي من قسم علم النفس في جامعة تل أبيب، "يمكن فحص ذلك أيضاً عن طريق الأدلة القائمة على الاستنتاج [indirect proof evidence]. لقد احتاج بِني موريس إلى 400 عام تقريباً كي يحصل على منصب في [جامعة] بئر السبع (ينتظر موريس حالياً تثبيته في قسم التاريخ)، وسيبقى آفي شلايم في أكسفورد، وصرت أنا بروفسوراً في قسم علم النفس لأنني متخصص بفقه اللغة النفسي."

لقد ألّف غرودجِنْسكي كتاباً درس فيه موقف الصهيونيين تجاه الناجين من الهولوكوست. "هذا الكتاب ما كنت قدرت على تأليفه لو كنت في قسم تاريخ شعب إسرائيل، لأن عملاً انتقادياً من هذا النوع لم يؤلَّف في أي قسم من أقسام التاريخ اليهودي، مع أنه في المحصلة عمل أرشيفي لا يتضمن أي تجديد في طريقة البحث. والتجديد الوحيد هو مجرد الاستعداد لمجابهة إساءات ارتكبها الصهيونيون."

يقول شنهاف إن آراءه السياسية "تسببت، بوضوح بتأخير ترقيته"، ويدعي أيضاً أن جامعة تل أبيب "هي بصورة عامة جامعة رجعية." أمّا الأخبار الطيبة، يضيف قائلاً، فهي أن "الجيل الشاب أكثر انفتاحاً جداً من الأكاديميين تجاه التفكير الانتقادي."

شنهاف، الذي هو "ما بعد صهيوني فقط بمقدار ما تنشغل ما بعد الصهيونية بالتداعيات السياسية للهويات [المتعددة]"، كتب في سنة 1996 مقالاً في "هآرتس" قال فيه إن اليسار الإسرائيلي، الذي هو أشكنازي في أغلبيته (بمن في ذلك المؤرخون الجدد) "مستعد لأن يكرس كل جهوده للمظالم التي لحقت وتلحق بالفلسطينيين، لكنه غير مستعد لإدانة جيل الآباء على عنصريته تجاه اليهود الشرقيين." وكان شنهاف وقتها رئيس قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا

في جامعة تل أبيب، وأثار مقاله كثيرين ودفعهم إلى إرسال ردود خطية على أقواله، مع وضد، بينهم طبعاً أمنون روبنشتاين.

"المقال الذي كتبته كان بالنسبة إليّ مفترق طرق"، يقول شنهاف، "كثيرون في الجامعة قالوا لي، بعد نشره، إن من الأفضل لي ألاّ أثير ضجة، وأن الانشغال بمسألة الشرقيين لن يفيدني، ولا يجوز أن أنحدر إلى السياسية. ولمّحوا إلى أن ذلك يمكن أن يؤثر سلباً في مركزي."

لكن على الرغم من الادعاءات فإن تأثير الباحثين ما بعد الصهيونيين في جامعة تل أبيب قوي جداً. والأقسام التي تعتبر معاقل لما بعد الصهيونية هي، أساساً، علم الاجتماع، وعلم السياسة، والفلسفة، والتاريخ العام، وعلم الآثار، وعلم النفس. وبين المحاضرين ما بعد الصهيونيين البارزين، إضافة إلى الذين ورد ذكرهم أعلاه، يجدر أن نذكر: البروفسور يسرائيل غرشوني (الشرق الأوسط)؛ البروفسور أفيعاد كلاينبيرغ (التاريخ)؛ البروفسور زئيف هيرتسوغ (علم الآثار)؛ البروفسور موشيه تسوكرمان (رئيس معهد الدراسات الألمانية)؛ د. رونين شامير (علم اجتماع القانون)؛ البروفسور حاييم غنز (الحقوق)؛ د. إيّال غروس (الحقوق)؛ وحتى وقت قريب أيضاً البروفسور حنان حيفر، الذي سينتقل هذه السنة إلى الجامعة العبرية [في القدس] ويدرّس فيها، بين موضوعات أُخرى، مساقاً تحت عنوان "ما بعد الصهيونية وما بعد القومية في الأدب العبري". وقد رفض حيفر أن تجُرى مقابلة معه لغرض كتابة هذه المقالة.

أمّا عدد ما بعد الصهيونيين في الجامعة العبرية فهو مرشح للازدياد بصورة ملموسة. فحيفر سينضم إلى البروفسور موشيه تسيمرمان (التاريخ العام)، وإلى الرباعي الموجود في قسمي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا (كيمرلنغ؛ البروفسورة تمار رابوبورت؛ د. داني رابينوفيتس؛ د. تمار إلؤور). "أتذكر أنني عندما بدأت الانشغال بالسياسة قيل لي بشكل قاطع: خفف نشاطك"، يقول يونا.

بابِهْ: "بدأتْ ما بعد الصهيونية في حيفا عندما صاغ شلومو سفيرسكي المصطلح في [أوائل] الثمانينات، مع أنه قصد به شيئاً مختلفاً. وبعد عقد من الزمن جئت أنا وبِني موريس، وبعد ذلك جاءت الذروة في أواسط التسعينات مع النجاح الكبير لـ[جامعة] بئر السبع، حيث أدركوا أن ما بعد الصهيونية ليست مجرد 'موضة' عابرة وإنما ظاهرة حقيقية داخل الوسط الأكاديمي. وعندها بدأ هذا الوسط يخاف من قوة الظاهرة ويقول، حسناً، هذا منحصر في بئر السبع فقط. وبعد ذلك بدأوا إغلاق الأبواب، وبدأ الهجوم على ما بعد الصهيونية.

"كان ما أرعب كل من هاجمنا هو حقيقة أن مؤلفي الكتب المدرسية بدأوا يتأثرون بما بعد الصهيونية. ثم جاءت الانتفاضة [الفلسطينية] الأخيرة وأخرجت كل الكراهية لما بعد الصهيونية. ومنذ تشرين الأول/ أكتوبر أصبح لزاماً على ما بعد الصهيونيين الاختباء في جحورهم. وأيضاً في

المجال الثقافي لم يظهر أي شيء ذي قيمة. وسائط الإعلام ضدنا، أنيتا شابيرا ألّفت كتاباً بحاله ضد ما بعد الصهيونية، وكذلك فعل أمنون روبنشتاين، وحتى غدي تاوب كتب 'التمرد البائس'."

"يوجد لدى معظمنا"، يقول يفتاحيل، "عدد لا يستهان به من الذين سيستمرون من طلاب الدكتوراه والماستر، وهم سيضمنون استمرار الموجة. لكن هناك شيئاً من الحقيقة فيما يقوله بابِهْ: في جامعة حيفا، وربما أيضاً في [الجامعة العبرية في] القدس، يوجد صراع عنيف من جانب أصحاب النظرة المؤسساتية ضد الانتقاديين."

عندما يصبح المتمردون هم المؤسسة

تعتقد أنيتا شابيرا أنه يوجد لما بعد الصهيونية تأثير قوي جداً في الجامعات. "هناك مسألة الأجيال في الجامعة"، تقول، "يمكن الافتراض أنه في مرحلة معينة، عندما يصل الجيل الذي أنتمي إليه إلى سن التقاعد، سيصبح لما بعد الصهيونيين نفوذ قوي، لأن لما بعد الصهيونية تأثيراً قوياً في الجيل الأصغر سناً. وعندما يتبدّل الجيل من المحتمل أن يكون ما بعد الصهيونيين هم الذين يقررون من يترقى في الجامعات، ومن يجري الاستغناء عنه. وأنا أتساءل: هل يكتسب طلابهم وجهات نظرهم، أم لا؟ والجواب هو أنني لا أعرف، لكني أيضاً لست قلقة. قبل عام، أو عامين، كان لدى الطلاب انفتاح أكبر كثيراً تجاه وجهات نظر كهذه، لأن الطلاب يحبون دائماً ما يبدو لهم جديداً ومثيراً للتحدي، لكن في السنة الأخيرة حدث انخفاض كبير في شعبيتهم في أوساط الطلاب.

"أنا شخصياً أدرّس منذ عدة أعوام مساقاً عن الصهيونية في الأدب والسينما؛ وفي هذا المساق ثلاثة دروس مكرسة للعلاقات بيننا وبين العرب. نحن، مثلاً، نقرأ 'خربة خزعه'. وفي هذه السنة عندما ألقيت الدرس [عن هذه الرواية] كان في إمكانك أن تقطعي الهواء بسكين. هناك تداخل وثيق بين الواقع الذي نعيشه [حالياً] وبين الطريقة التي يستوعب الطلاب من خلالها ما نقوله. وهذا ما يجعل، إلى حد كبير، الآراء ما بعد الصهيونية غير مقبولة لدى جمهور في الوسط الأكاديمي آخذ في الازدياد.

وتتوقع شابيرا أن تحين اللحظة التي سيُنظر فيها إلى المتمردين ما بعد الصهيونيين كمؤسسة جديدة. "مثلما كنا نحن، قدامى الجيل، المؤسسة في نظر ما بعد الصهيونيين الذين تمردوا علينا، فإنهم سيكونون هم، عندما يتبدل الجيل، المؤسسة في نظر من سيتمردون عليهم. وأنا ألحظ منذ الآن بواكير هذه الظاهرة. إن الباحثين الجدد يحبون التوقد الذهني والتجديد، لكن عندما يصبح ما يقال بديهياً ومبتذلاً، تقريباً، وعندما يصبح الجميع يتحدثون اللغة نفسها – وهذا إلى

حد كبير ما يتسم به ما بعد الصهيونيين – فإن الباحثين الشبان الذين يتحلّون بروح التمرد سيقولون كفى، سئمنا، دعونا من هذا الأمر.″■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx